الفصل الثالث:
مع الأنبياء

obeikandl.com

مع نبي الله عيسى..

قال أبو داود في كتاب القدر: لقي عيسى ابن مريم إبليس.

فقال إبليس: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كُتِبَ لك؟ فاذهب إلى ذروة هذا الجبل فتردى منه فانظر هل تعيش أم لا.

فقال عيسى: أما علمت أن الله تعالى قال: لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت.. إن العبد لا يبتلي ربه ولكن الله يبتلي عبده.

وفي روايةٍ أخرى قال أبو داوود: أتى الشيطان عيسى ابن مريم.. فقال: أليس تزعم أنك صادق؟ فأت هوة فألق نفسك..

قال عيسى: ويلك.. ألم يقل الله يا ابن آدم.. لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء..

* * *

وورد هذا الحديث تحديداً بروايات عدة.. ومن أماكن مختلفة

فقد ورد عن أبي توبة الربيع بن نافع.. حدثنا حسين بن طلحة.. سمعت خالد بن يزيد.. قال: تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين.. أقام يوماً على شفير جبل فقال الشيطان: أرأيت إن ألقيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي.. فعرف عيسى أنه الشيطان ورد عليه قائلاً: إني لست بالذي أبتلي ربي ولكن ربي إذاً شاء ابتلاني.. وفارقه عيسى من حينه..

* * *

وعن أبى بكر بن أبي الدنيا: حدثنا شريح بن يونس.. حدثنا علي بن ثابت.. عن الخطاب بن القاسم.. عن أبي عثمان.. كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل.. فأتاه إبليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟

قال: نعم

قال: فألق نفسك من هذا الجبل وقل قُدِرَّ علي.

فقال: يا لعين.. الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل.

* * * * *

إبليس يناظر عيسى..

عن ابن عباس قال: لما مضى بعيسى ثلاثون سنة بعثه الله عزّ وجلّ إلى بني إسرائيل فلقيه إبليس لعنه الله على عقبة بيت المقدس[1] فقال له:

- يا عيسى أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكونت من غير أب؟

قال: بل العظمة لله.. كوّنني وكذلك كوّن آدم وحوّاء..

قال إبليس: يا عيسى أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تكلّمت في المهد صبياً؟

قال عيسى: يا إبليس بل العظمة للذي أنطقني في صغري ولو شاء لأبكمني..

(١) أى مدخل بيت المقدس.. وهى عقبة تسمى عقبة (أفيق).

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيصير طيراً؟

قال عيسى: بل العظمة للذي خلقني وخلق ما سخّر لي..

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تشفى المرضى؟

قال عيسى: بل العظمة للذي بإذنه أشفيهم وإذا شاء أمرضني..

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تحيي الموتى؟

قال عيسى: بل العظمة للذي بإذنه أحييهم ولابدّ أن يميت ما أحييت ويميتني.

* * * * *

شأنه مع نبي الله يحيى..

ظهر إبليس ليحيي "عليه السلام" فرأى عليه معاليق فقال " يحي": يا إبليس ما هذه المعاليق التى أرى عليك..؟

قال: هذه الشهوات التى أصيد بها ابن آدم..

قال: فهل لي فيها من شيء..؟

قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وثقلناك عن الذكر..

قال: هل غير ذلك..؟

قال: لا والله..

قال: لله على ألا املأ بطني من طعامٍ أبداً..

قال إبليس: ولله على أن لا أنصح مسلماً أبداً..

* * * * *

تصنيف إبليس لبنى آدم..

تمثّل إبليس ليحيى بن زكريا عليه السلام فقال لـه: أنصحك؟

فقال يحيى: لا أريد ذلك.. ولكن أخبرني عن بني آدم.. فقال: هم عندنا ثلاثة أصناف.. صنفٌ منهم أشدّ الأصناف عندنا.. نُقيل أحدهم حتى نفتنه في دينه ونستمكن منه.. فيفزع إلى الإستغفار والتوبة.. فيُفسد علينا كل شيءٍ نصيبه منه.. ثم نعود إليه فيعود إلى الاستغفار والتوبة.. فلا نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا.. فنحن معه في عناءٍ.. وصنفٌ هم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم.. نتلقّفهم كيف شئنا قد كُفينا مؤنة أنفسهم.. وصنفٌ منهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيءٍ.

* * * * *

إبليس فى سفينة نوح..

لما ركب نوح "عليه السلام" فى السفينة رأى فيها شيخاً لم يعرفه فقال لـه نوح:

- ما أدخلك؟

قال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك..

فقال لـه نوح: اخرج يا عدو الله..

فقال إبليس: خمس أُهلِكُ بهن الناس.. وسأحدثك منهن بثلاث.. ولا أحدثك باثنتين..

فأوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام لا حاجة لك إلى الثلاث.. مُرْهُ يحدثك بالإثنتين.. فقال بهما أَهلِكُ.. وهما لا يكذبان الحسد.. والحرص.. فبالحسد لُعِنتُ.. وجُعِلتُ شيطاناً رجيماً.. وبالحرص بِعتُ لآدم الجنة كلها فأصبت حاجتي منه فأُخرِجَ من الجنة.

* * * * *

شأنه مع نبى الله موسى عليه السلام..

وشرط توبة إبليس

لقي إبليس موسى " عليه السلام" فقال:

- يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً.. وأنا من خلق الله تعالى.. أذنبت وأريد أن أتوب.. فأشفع لي إلى ربى عز وجل أن يتوب علىّ.

فدعا موسى ربه.. فقيل: يا موسى قد قُضِيَتْ حاجتك.. فلقي موسى إبليس فقال لـه:

- لقد أُمِرتَ أن تسجد لقبر آدم ويُتابُ عليك.

فاستكبر إبليس وغضب وقال: لم اسجد لـه حياً.. أأسجد لـه ميتاً؟

ثم قال يا موسى أن لك حقاً بما شفعت إلى ربك.. فاذكرني عند ثلاث لا أهلك فيهم أذكرني حين تغضب.. فأنا وحيّ فى قلبك.. وعيني فى عينك.. وأجرى منك مجرى الدم.. وأذكرنى حين تلقى الزحف.. فأنى آتى ابن آدم.. فأُذكِرّهُ ولده وزوجته وأهله حتى يُولي.. وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم.. فإني رسولها إليك ورسولك إليها.

* * *

وروى نفس الحديث بطريقٍ آخر..

فذات يومٍ جاء إبليس إلى موسى عليه السلام وقال:

أريد أن أنصحك بألف وثلاث نصائح..

فعرفه موسى وقال: لا أحتاج الى نصائحك..

فنزل جبريل عليه السلام وقال: يا موسى يقول لك الله: إن نصائحه الألف كذب ولكن اسمع نصائحه الثلاثة.

فقال موسى عليه السلام لإبليس: هات بثلاثة نصائح من نصائحك الألف والثلاث..

قال إبليس:

١ - إذا هممت بعمل الخير فأسرع فيه وإلا سأُحِطُ من هِمتك.

٢ - إذا خلوت بامرأةٍ لا تحل لك فلا تغفل عني فإني سأجبرك على المعصية.

٣ - إذا غضبت فغير مكانك فإني أوجب الفتنة.

وبما أني نصحتك ثلاثة نصائح (أصبح لي حق عليك) فاطلب من الله أن يرحمني ويغفر لي؟

فأبلغ موسى عليه السلام.. الله سبحانه وتعالى طلب إبليس فقال الله عز وجل: إن من شروط غفران الشيطان هي أن يذهب الى قبر آدم عليه السلام ويسجد " لتراب قبره "

فأبلغ موسى عليه السلام الشيطان بأمر الله عز وجل.

فقال إبليس وبكل تكبر وغرور: يا موسى! عندما كان آدم حياً لم أسجد له فكيف أسجد لتراب قبره الآن؟!

* * *

بينما موسى " عليه السلام" جالس في بعض مجالسه إذ أقبل إبليس وعليه برنس له يتلون فيه ألواناً.. فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه وقال له:

- السلام عليك يا موسى..

فقال له موسى " عليه السلام": من أنت؟

قال: أنا إبليس..

قال: فلا حياك الله ما جاء بك؟

قال: جئت لأُسلِّم عليك لمنزلتك عند الله تعالى ومكانتك منه..

قال: فما الذي رأيته عليك..

قال: به اختطف قلوب بنى آدم..

قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟

قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذرك ثلاثاً

١ - لا تخلون بامرأة لا تحل لك قط.. فإنه ما خلا رجل بامرأةٍ إلا كنت صاحبه حتى افتنه بها.

٢ - ولا تعاهد الله عهداً إلا وَفَيتَّ به فأنه ما عاهد الله أحدٌ إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء به.

٣ - ولا تُخرجِنَّ صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجلٌ صدقةٌ فلم يمضها إلا كنتُ صاحبه من دون اصحابى حتى أحول بينه وبين إخراجها.

ثم ولى وهو يقول يا ويله " ثلاثاً " علم موسى ما يحذر به بنى آدم..

* * * * *

شأنه مع نبى الله أيوب..

ارتبط ابتلاء أيوب وما مّر به من محن بذكر الشيطان بشكل اختلط فيه الحق بالباطل كثيراً.. لكن أشهر رواية عن فتنة أيوب وصبره هي الرواية التالية:

تحدث ملائكة الأرض فيما بينهم عن الخلق وعبادتهم.. قال قائل منهم:

ما على الأرض خيراً من أيوب.. هو أعظم المؤمنين إيماناً وأكثرهم عبادة لله.. وشكراً على نعمه.. ودعوة إليه.

وسمع الشيطان ما يقال.. فساءه ذلك.. وطار إلى أيوب محاولاً إغواءه.. ولكن أيوب نبي وليس للشيطان عليه سبيل.. ويئس الشيطان من إغواء أيوب.. قال الله تعالى: يا رب.. إن عبدك أيوب الذي يعْبُدُكَ ويقُدسكَ.. لا يُعبدُكَ حباً وإنما يعبدك لأغراض.. يعبدك ثمناً لما منحته إياه من مالٍ وبنين.. وما أعطيته إياه من ثروةٍ وعقار.. وهو يطمع أن تحفظ عليه ماله وثراءه وأولاده.. وكأن النعم العديدة التي منحتها له هي السر في عبادته.. إنه يخاف أن يمسها الفناء أو تزول.. وعلى ذلك فعبادته مشوبةٌ بالرغبة والرهبة.. يشيع فيها الخوف والطمع.. وليست عبادة خالصة ولا حباً خالصاً.

وتقول الرواية إن الله تعالى قال لإبليس: إن أيوب عبدٌ مؤمن خالص الإيمان.. وليكن أيوبُ قبساً في الإيمان ومثلاً عالياً في الصبر.. قد أبحتك ماله وعقاره.. افعل ما تريد.. ثم انظر إلى ما تنتهي[1].

وهكذا انطلقت الشياطين فأتت على أرض أيوب وأملاكه وزروعه ونعيمه ودمرتها جميعاً.. وانحدر أيوب من قمة الثراء إلى حضيض الفقر فجأة.. وانتظر الشيطان تصرف أيوب.

وقال أيوب: عاريةٌ لله استردها.. ووديعةٌ كانت عندنا فأخذها.. نُعِمنَّا بها دهراً.. فالحمد لله على ما أنعم.. وُسلبنَّا إياها اليوم.. فله الحمد معطياً

(١) نعرض للحديث بنصه الذى جاء به في بعض الكتب ولا نوافق حتى على ألفاظه خاصة فقرة (قد أبحتك) فأنبياء الله أعزاء على ربهم فلا يُبيحهمْ هكذا للشياطين. كما أن ردّ رب العزة على إبليس هكذا بلا وسيط.. أهو أمر مستبعد.

وسالباً.. وراضياً وساخطاً.. نافعاً وضاراً.. وهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء.. وينزع الملك ممن يشاء.. ويُعِزُ من يشاء.. ويُذِلُ من يشاء.

ثم خرّ أيوبُ ساجداً.. وترك إبليس وسط دهشته المخزية..

وعاد الشيطان يقول لله تعالى: يا رب.. إذا كان أيوب لم يقابل النعمة إلا بالحمد.. والمصيبة إلا بالصبر.. فليس ذلك إلا اعتداداً بما لديه من أولاد.. إنه يطمع أن يشتد بهم ظهره ويسترد بهم ثروته.

وتقول الرواية إن الله أباح للشيطان أولاد أيوب.. فزلزل عليهم البيت الذي يسكنون فيه.. فقتلهم جميعا.

وهنا قال أيوب داعياً ربه: الله أعطى.. والله أخذ.. فله الحمد معطياً وسالباً.. ساخطاً وراضياً.. نافعاً وضاراً.

ثم خرّ لله ساجداً وترك إبليس وسط دهشته المخزية. وعاد إبليس يدعو الله: إن أيوب لم يزل صابراً لأنه معافى في بدنه. ولو أنك سلطتني يا رب على بدنه.. فسوف يكف عن صبره.

تقول الرواية أن الله أباح جسد أيوب للشيطان يتصرف فيه كيف يشاء.. فضرب الشيطان جسد أيوب من رأسه حتى قدميه.. فمرض أيوب مرضاً جلديا راح لحمه فيه يتساقط ويتقيح.. حتى هجره الأهل والصحاب.. فلم يعد معه إلا زوجته ..

وظل أيوب على صبره وشكره لله تعالى.. حامداً الله على أيام الصحة.. وعلى بلاء المرض.. وشكره في الحالتين.

وازداد غيظ الشيطان فلم يعرف ماذا يفعل.. وهنا جمع إبليس مستشاريه من الشياطين وحدثهم بقصة أيوب وطلب رأيهم بعد أن أعلن يأسه من إغوائه أو إخراجه من صبره وشكره.. وقال أحد الشياطين: لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة.. فمن أين أتيته؟

قال إبليس: آه.. تقصد حواء.

وانقدحت في عقل إبليس فكرة جديدة.. ذهب إلى امرأة أيوب وملأ قلبها باليأس حتى ذهبت إلى أيوب تقول له: حتى متى يُعذبُكَ الله؟ أين المال والعيال والصديق والرفيق؟ أين شبابك الذاهب وعزك القديم؟

وأجاب أيوب امرأته: لقد سول لك الشيطانُ أمراً.. أتراك تبكين على عزٍ فات.. وولدٍ مات..؟

قالت: لماذا لا تدعو الله أن يُزيحَ بلواكَ ويشفيكَ ويكشفَ حزنك؟

قال أيوب: كم مكثنا في الرخاء؟

قالت: ثمانين سنة.

قال: كم لبثنا في البلاء؟

قالت: سبع سنوات.

قال: أستحي أن اطلب من الله رفع بلائي.. وما قضيت فيه مدة رخائي.. لقد بدأ إيمانُك يضعف.. وضاق بقضاء الله قلبُك.. لئن بَرِئتُ وعادت إلي القوة لأضربنك مائة عصا.. وحرامٌ عليَّ بعد اليوم أن آكل

من يديك طعاماً أو شراباً أو أكلفك أمراً.. فاذهبي عني.

وذهبت زوجته وبقي أيوب وحيداً صابراً.. يحتمل ما لا تحتمله الجبال.. وأخيراً فزع أيوب إلى الله داعياً متحنناً لا متبرماً ولا متسخطاً.. ودعا الله أن يشفيه فاستجاب له الله.

هذه أشهر رواية عن فتنة أيوب وصبره.. لكن يعتريها الكثير مما يرفضه العقل والواضح والمؤكد تماماً أنها شابها الكثير من الإسرائيليات خاصةً فى الجانب الذي يتفق مع ما ورد فى نص التوراة حول مرض أيوب وكون مرضه كان منفراً أو مشوها كما تقول أساطير القدماء.. وهو ما لا يتفق مع كرامة الأنبياء على ربهم العلى القدير.. فلا يتركهم هكذا مهما كان قدر الإبتلاء.. ألعوبةً فى يد أحط خلق الله " إبليس " وأعوانه.. ونذهب إلى "القرآن الكريم " لنرى وصفه لمحنة أيوب فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعال في سورة (الأنبياء):

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}.

* * * * *

المفهوم القرآني..

نفهم مما سبق أن الله أراد امتحان أيوب في ماله وأهله وجسمه.. ضاع ماله وأصبح فقيراً بعد أن كان أغنى الأغنياء. وفَقَدَ أهله وبدأ يعرف معنى الوحدة.. ومرض جسمه مرضاً عظيماً كان يتألم له.. ولكنه صبر على هذا كله وشكر.

وطال مرضه وبلاؤه وهجره الناس.. حتى صار يقضي أيامه كلها وحيداً مع المرض والحزن والوحدة.. الذين حاصروه من كل إتجاه.. ورغم ذلك لم ينس الصبر.. كان صبره متجاوزاً لبلائه ومتفوقاً عليه.

* * * * *

الجانب العقلي في القصة..

وحاول إبليس أن ينتهز الفرصة ولا يفوتها.. لإضلال نبى الله.. فجاء يوسوس له قائلا:

يا أيوب.. هذا الألم وهذا العذاب اللذان تحسهما بسبب مَسٍ مني.. ولو أنك توقفت عن الصبر يوماً واحداً لذهب عنك الألم وشفيت..

ويقول الناس في أمرك: لو كان الله يحبه ما ابتلاه بكل ما ابتلاه به.

لكن استمر أيوب في صبره وعبادته وشكره لله.

* * * * *

أيوب يشكو تجاسر الشيطان عليه..

وغضب أيوب لتجاسر الشيطان عليه وتصوره أنه يمكن أن يغريه أو يغويه.. مستغلاً وحدته وبأسه ومرضه.. وهو الجانب المفهوم من قول أيوب لربه:{أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}.

ومن الخطأ والتجرؤ على أنبياء الله أن نظن بهم السوء.. وعلى عكس الشائع أن أيوب لم يكن يعتقد أن ما به من مرض قد جاء بسبب الشيطان.. فلأنبياء الله عصمتهم وكمالهم الذى لا يليق ولا يتفق مع كرامتهم على رب العزة.. فقط كان يريد أيوب أن يشكو لربه جرأة الشيطان عليه وتصوره أنه يستطيع أن يغويه..

وحضرت زوجة أيوب متأخرة فوجدت أيوب غاضباً.. كانت تلف رأسها بغطاء.. وكانت قد أحضرت إليه طعاماً طيباً.. وسألها أيوب: من أين جاءتك النقود؟ وأقسم أيوب أن يضربها مائة ضربة بالعصا عندما يشفى عندما اكتشف أنها قد قصت شعرها لتحضر إليه طعاماً يأكله.

* * * * *

دعوة أيوب..

وخرج نبي الله تعالى إلى الجبال يدعو ربه.. قال تعالى:{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ

وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

* * *

أمر الله تعالى أيوب أن يستحم في عين من عيون المياه في الجبل.. وأن يشرب من ماء هذه العين.. وجرى أيوب فاغتسل وشرب.. ولم يكد يشرب آخر جرعة من الماء حتى أحس أنه شُفِيَ فجأة.. وزالت عنه الحمى.. وذهب الألم.. وهبطت حرارته.. ووهب الله لأيوب أهله ومثلهم معه رحمة من عنده سبحانه.. ولم يعد أيوب وحيداً.. وهبه الله أضعاف ثروته كرماً من عنده.. فلم يعد أيوب فقيراً.. عادت إليه صحته بعد طول المرض.. وشكر أيوب الله.. وكان قد أقسم أن يضرب امرأته مائة ضربة بالعصا عندما يشفى.. وها هو ذا قد شفي.. وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لا يقصد ضرب امرأته.. ولكي لا يحنث في قسمه أو يكذب فيه.. أمره الله أن يجمع حزمة من أعواد الريحان عددها مائة.. ويضرب بها امرأته ضربة واحدة.. وبذلك يكون قد بر في قسمه ولم يكذب..

* * * * *